

مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم

الدكتور: مصطفى مرضي

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

إنّ أزمة النحو ليست وليدة العصر الحديث، بل كانت موجودة على وقت النحويين القدماء وما الدعوات التي أطلقها الكثير من العلماء حول ضرورة تيسير النحو وتهذيب مسأله إلا شاهد على قدم ظاهرة التعقيد في النحو وصعوبة التعامل مع أبوابه المختلفة ومسأله المتفرقة المتشعبة. ويقوم هذا البحث بمناقشة بعض الآراء والمناهج اللسانية في تعاملها مع النحو العربي القديم، وأثر اللسانيات الحديثة خاصة اللسانيات البنيوية في النحو العربي القديم، كما حمل البحث العديد من التساؤلات حول قضية منهجية أساسية تتمثل في كيفية إسقاط مفاهيم ومبادئ اللسانيات المعاصرة على قضايا لغوية خاصة بالدرس النحوي العربي القديم؟ هل تتم وفق النموذج الغربي في الدراسة؟ أم يجب مراعاة خصوصية اللغة العربية والبيئة التي نشأ فيها النحو العربي؟ ولعل أول إشكال يواجه اللسانيات العربية هو معطيات الدراسة أو طبيعة اللغة التي يقوم الدارس بوصفها هل هي اللغة العربية الفصحى؟ أم اللغة العامية الأكثر تداولاً واستعمالاً شفويةً كانت أم نصوصاً مكتوبةً؟ وهل اللسانيات الحديثة قادرة على إقصاء النحو التقليدي؟ ثم هل من الضرورة تجديد النحو العربي بالاستفادة من معطيات اللسانيات الحديثة لتيسير النحو التعليمي؟.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي؛ اللغة العربية الفصحى؛ البنيوية؛ اللسانيات الحديثة؛ المناهج اللسانية؛ ظاهرة التعقيد؛ النحويين القدماء.

The Manifestations of Linguistic Approach to Ancient Arabic Grammar

Abstract: The crisis of grammar is not the product of the modern era, but it existed on the time of the ancient grammarians and the calls made by many scientists on the need to facilitate grammar and refine its issues are only to witness on the obsolescence of the phenomenon of complexity in grammar, and the difficulty of dealing with its various sections and sporadic issues. This research discusses some of the viewpoints and linguistic approaches in dealing with the ancient Arabic grammar, and the impact of modern linguistics, especially structural linguistics in ancient Arabic grammar. It also raised many enquiries about the basic methodological issue of how to transpose

تاريخ تسليم البحث: 14 ماي 2017.

تاريخ قبول البحث: 23 ديسمبر 2017.

مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم _____ مجلة فصل الخطاب

contemporary linguistics concepts and principles on grammatical linguistic issues especially the old Arabic grammar lesson? Does it follow the Western model in the study? Or should it take into account the specificity of the Arabic language and the environment in which Arabic grammar originated? Perhaps the first problem faced by Arab linguistics is the data of the study or the nature of the language that the student describes is it the standard Arabic language? Or the most widely spoken and used colloquial language either oral or written texts? Is modern linguistics able to exclude traditional grammar? Then, is it necessary to renew the Arabic grammar by making use of the modern linguistics data to facilitate the educational grammar?

Keywords: modern linguistics; complexity in grammar; facilitate grammar; grammar; Arabic language.

تمهيد: حظيت اللغة العربية باهتمام كبير من قبل الباحثين والدارسين على مر العصور لما تحمله من ملامح وصفات ومادٍ لغوية، ومعانٍ ومدركاتٍ تفتح آفاقاً واسعة، وبما تلعبه من دورٍ فعّالٍ في حياة الفرد والمجتمع، فاللغة مؤسسة اجتماعية تنمو وتتطور بتطور الحياة الاجتماعية والثقافية. وتكمن أهمية اللغة العربية في كونها لغة القرآن الكريم ولغة العرب والمسلمين فهي تعبر عن كيانهم ووجودهم وترسم معالم حضارتهم المترامية الأطراف والضاربة في جذور التاريخ.

وقد كانت اللغة العربية موضوع اهتمام العلماء والأدباء والنقاد في وقتٍ مبكرٍ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وقد زاد اهتمام الدارسين باللغة العربية في العصر الحديث، فحاولوا اقتراح آراء جديدة تتعلق بكيفية دراستها، فظهرت محاولات التيسير، والإصلاح والتجديد، ومحاولة استنساخ بعض المناهج الغربية كالفيلولوجيا والتأريخ والمقارنة.

1- النحو العربي مفهومه ونشأته:

أ- مفهومه: النحو في اللغة هو القصد، والجهة والمقدار، والمثل والشبه... أما في الاصطلاح فيعرفه ابن جني بقوله: "النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصريفه، من إعرابٍ وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق، والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شدد بعضهم عنها، رُدَّ به إليها"¹ كما يعرفه ابن السراج بقوله: "النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"².

ويعرفه الأستاذ أحمد الهاشمي بقوله: هو "قواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية التي حصلت بتركيب بعضها مع بعض من إعرابٍ وبناءٍ وما يتبعهما، وبمراعاة تلك الأصول يحفظ اللسان من الخطأ في النطق، ويعصم القلم من الزلل في الكتابة والتحرير"³.

ب- نشأته: أجمع الباحثون والدارسون على أن نشأة النحو العربي كانت بفعل ظاهرة اللحن الذي فشا بعد توسع رقعة الدولة العربية الإسلامية واختلاط العرب بباقي الأمم الأخرى. والذي يعرفه ابن جني بقوله: "اللحن مخالفة القياس والسمع معا"⁴. أما الأستاذ صالح بلعيد فيعتبره خروجاً عن طبيعة اللغة، فيقول: "اللحن تكسيرٌ لنظام اللغة، فهو يقف حاجزاً أمام الباحث اللساني، فلا يستطيع أن يعرف أصول تلك اللغة، فهو ناتجٌ عن اختلاط الأمم بعضها ببعض، وهو ليس تطوراً طبيعياً للغة بل هدمٌ لكيان، وإنشاء كيانٍ آخر..."⁵.

كما يعتبره حلمي خليل سبباً مباشراً لانطلاق البحث اللغوي بشكلٍ عامٍ يقول: "فاللحن في نظر كثيرٍ من الباحثين قديماً وحديثاً، كان هو السبب المباشر للنظر في اللغة والبحث فيها"⁶.

2- البحث اللساني في القرن العشرين: شهد القرن العشرون تطوراً كبيراً في مختلف العلوم بعد أن تم اكتشاف الكثير من النظريات والآراء العلمية، إذ كانت قد حدثت في نهاية القرن التاسع عشر تطوراتٌ علميةٌ كثيرةٌ في مختلف العلوم الطبيعية والأساسية والتفسيّة فخصعت هذه الحقائق العلمية لتفكيرٍ عميقٍ، وظهرت آراءٌ جديدةٌ تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة المعقدة للظواهر العلمية. ولقد اقتنع العلماء في هذا القرن بأن العالم مبني وفق نظامٍ، فلذلك شيءٍ نظامٍ، وكلّ ظاهرة تسير بحسب نظامٍ دقيقٍ محددٍ لأنّ العالم كلٌّ مُنظَّمٌ. لذلك اتخذ العلماء شعاراً لهم ولعملهم المقولة التي تقول: لكي نستكمل معرفتنا عن العالم ينبغي أن نبحث عن بنية النظام، وسُيِّ هذا المنهج الذي اتَّبَعَهُ العلماء بـ (المنهج البنوي) وبدأ عصرُ البنيويّة في البحث العلمي، إلا أنّ هذا المنهج البنوي الجديد في تناول الظواهر ودراستها تعرّض لمقاومة من جانب التقليديين.

كما أضحي التعاون الوثيق بين المجالات المعرفية المتداخلة سمةً من سمات القرن العشرين؛ فالعمل العلمي الصّحيح ينبغي أن يرتبط بنظرية المعرفة، لذا كان على اللسانيّ الحديث أن يتسلّح بالمعرفة التي يحصلها من العلوم الأخرى، ومن بينها العلوم الدّقيقة، كما كان عليه أن يمتلك آفاقاً معرفية أوسع بكثير ممّا كان يحلم به المرء سابقاً، وبذلك اختلفت لسانيات القرن العشرين عن لسانيات القرن التاسع عشر بالتنظيم المنهجي للمعرفة، وفي التفسير الجديد للحقائق وفي توسيع مجالات اهتمامها، وفي انغماس دارسها في تعاون يتّسم بالتداخل بين التخصصات لإنجاز مهمات واسعة النطاق بشكل أوسع مما كان متاحاً سابقاً.

لذلك كان على اللسانيّات نقل الإجراءات المنهجية من فروع العلم الأخرى (كالتاريخ، وعلم النفس، والجغرافيا...)، واستخدامها في تحليل الظواهر اللسانية. وبذلك ازدهرت اللسانيات على أيدي أنصار اللسانيات البنوية، لأنهم كانوا يجتهدون ويتطلعون إلى مناهج جديدة تسير الاتجاهات الأخرى العامّة السائدة في العلوم؛ وعليه فقد اكتسبت لسانيات

مظاهر التنازل اللساني للنحو العربي القديم

التبصير الأول من القرن العشرين سمتها الخاصة، وسادت نظرتهم الجديدة إلى الظواهر اللغوية، لكن هذا لا يعني أن اللسانيات التقليدية قد اضمحلت أو انتهت.

شهدت الصوتيات - وصفها أبسط العناصر اللسانية وأكثرها قابلية للبحث- ازدهاراً كبيراً، (ذلك أن الأصوات هي العنصر المادي المحسوس الوحيد في اللغة)، أما المعاني فهي مجردة، وشكلت حقلاً بكرةً ملائماً لبناء النظريات. وزاد الاهتمام في القرن العشرين باللغات غير الهندو أوروبية، وتوافرت بين أيدي اللسانيين مادةٌ خصبةٌ من تلك اللغات التي تتميز باختلاف بُنيتهما عن اللغات غير الهندو أوروبية، وصرف البنيويون جلَّ اهتمامهم إلى إقرار الدراسة الوصفية اللسانية في المراحل الأولى، لذلك ذهب بعض الدارسين إلى اتهامهم بإهمال الدراسة التاريخية للغة. لكن الواقع يثبت عكس ذلك، فإذا كان هؤلاء البنيويون قد اهتموا اهتماماً كبيراً بالمنهج الوصفي، فذلك لأنهم كانوا بصدد ترسيخ هذا المنهج وإقراره لكن تاريخ اللغة لديهم اكتسب محتوىً مختلفاً، فعلى تاريخ اللغة - في رأيهم - أن يفسر التطور اللغوي في مجمله، وأن يدرس أسباب هذا التطور أو التغيير اللغوي.

كما حظي علم اللهجات باهتمام اللغويين في بداية القرن العشرين، كما بلغ علم الدلالة طور النضج في هذا القرن وكذلك شهدت اللسانيات النفسية (علم اللغة النفسي) إنجازات كبرى، إلى جانب النحو المنطقي أو العقلائي أو التوليدي، كما توسع مفهوم الدراسات الفيلولوجية، فشملت التاريخ الثقافي للغة ودراسة العامية والأدب الشعبي. وهكذا اكتسبت البنيوية انتشاراً واسعاً، وأضحت فكرة البنيويين أن "اللغة نظام تواصلية ينبغي على الباحثين أن يفحصوا بُنيته" من المسلمات التي لا يمكن للساني أن يتجاوزها. وقد عرض كثير من البنيويين عن معالجة القضايا اللسانية التقليدية التي كانت قد ازدهرت من قبل، وأضحى التعاون المكثف بين اللسانيين والعلماء في المجالات المعرفية الأخرى سمة بارزة من سمات المنهج البنيوي، فلجأوا إلى اقتباس مناهج العلوم الأخرى وطرائق البحث فيها.

3- اللسانيات البنيوية: هي علمٌ يقوم على أساس أن تحليل أي عنصر من عناصر اللغة لا يتم بمعزل عن بقية العناصر في النظام اللغوي. وهي (أي اللسانيات البنيوية) نظرية تطبق المنهج الوصفي في دراسة اللغة، فتتنظر إليها على أنها وحدات صوتية تتجمع لتكوّن وحدات مورفولوجية (صرفية) لتكوّن بدورها عبارات وتراكيب وجملاً.

بلغت البنيوية أوجها في الفترة الواقعة بين (1925 - 1950م) وبذلك نستطيع القول إن المدارس اللغوية منذ (فردينا ند دي سوسير)⁷ "Ferdinand de Saussure" وحتى (تشو مسكي)⁸ "Avram Noam Chomsky" تنتمي إلى اللسانيات البنيوية بصورة أو بأخرى، لأنها جميعاً تؤمن

بأنّ اللّغة عبارة عن نظامٍ من العلاقات، لذلك سمّى اللغوي الفرنسي (جان بياجيه)⁹ "Jean Piaget" نظرية تشومسكي في النّحو التّوليديّ والتّحويلي باسم (البنوية التّحويليّة).

تعود البنيويّة في اللّسانيّات إلى ما قبل عام 1930م في أوروبا والولايات المتّحدة، وتعني البنيوية - كما رأينا - منهجاً جديداً في تناولِ حقائقٍ معروفةٍ بالنّظر إلى وظيفتها في النّظام كما تنظرُ إلى الوظيفة الاجتماعية في اللّغة (الوظيفة التّواصلية)، إلى جانب التّمييز بين الجوانب التّاريخية، وخصائص النّظام اللّغويّ في لحظة زمنيّة محدّدة.

ظهر روادُ البنيوية في أماكنٍ مُتفرّقةٍ في أوائل القرن التّاسع عشر، لكنّ جُودهم كانت مُبعثرةً، ولم تحظْ بالاهتمام عند معاصريهم حتى ظهر فرديناند دي سوسير الذي يُنظرُ إليه على أنه مؤسس اللّسانيّات البنيوية، وتتلخص المقولات اللسانية عند دي سوسير فيما يلي:

- 1- اللّغة نظام، وتدرّس على أنها أجزاءٌ من نسقٍ كُلّيّ يُنظرُ إليها تبعاً لمكانها من النّظام.
- 2- اللّغة ظاهرة اجتماعيّة وظيفتها التّواصل والتّفاهم المتبادل، والارتباط بين الصّوت والمعنى يجب أن يتولّد في العقل، والعلامة اللغويّة اعتباريّة، والتطوّر التّاريخيّ والحالة الرّاهنة للّغة ظاهرتان مختلفتان، ولكلّ حالةٍ منهجٌ تدرّس به اللّغة. قامت اللسانيّات البنيوية في أوروبا على أساس أفكار دي سوسير. أمّا في أمريكا فقد كان دي سوسير مجهولاً.

وقد شهدت الدراسات اللغوية في العالم العربي مع مطلع القرن العشرين تأثيراتٍ علم اللّغة الحديث الذي ظهر في أوروبا على يد عالم اللّغة السويسري (فرديناند دي سوسير) "Ferdinand de Saussure" 1913م والذي يعتبر مؤسس علم اللّغة الحديث الذي يتخذ "اللّغة" موضوعاً للدراسة حيث يعرفه بأنّه "العلم الذي يدرّس اللّغة لذاتها ومن أجل ذاتها" ومعنى ذلك أنّه منهجٌ لغويّ خالصٌ يدرّس اللّغة نفسها ولا هدف له إلا كشف العناصر التي تتكون منها تلك اللّغة المدروسة، فلعلم اللّغة الحديث منهجه المستقل عن المناهج الدخيلة كالفلسفة والمنطق وعلم النفس وغيرها.

وقد فرق "دي سوسير" بين نوعين من الدراسة في البحث اللغوي دراسة تاريخية "Historical"¹⁰ والدراسة الوصفية "Descriptive" بعد أن كان النّحو التّاريخيّ والمُعاصر متداخلين، وقد انتصر العلماء في هذا القرن للمنهج الوصفي "Formal Aproach" في دراسة اللّغة، ولا بد للباحث أن يتصف "بالتجرد والموضوعية" معتمداً في تناوله للمادة المدروسة على "الشكل والوظيفة" دون وضع اعتبارٍ لأفكارٍ خارج اللّغة نفسها، سواءً أكانت اللّغة المدروسة لغةً قديمةً أم لغةً حيّةً؛ لكن نبدأ بمحاولة الإجابة عن السّؤال المنهجي التالي: لماذا موضوع مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم؟

مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم

هذا السؤال الذي يعتبر إحدى مقولات اللسانيات العربية الحديثة التي تعتمد بشكل أساسي على الأفكار والمبادئ التي تقدمها اللسانيات العامة، كما يهدف النقد اللساني إلى مراقبة النظريات اللسانية واللغوية، ومدى نجاعتها في تمثيل أصولها المعرفية. وقد أثبت هذا العلم نجاعته في اختراق سياج الكثير من النظريات من بينها النظرية النحوية العربية القديمة. كما يعتبر وسيلةً ضروريةً لإمداد الدرس اللغوي بالنظريات اللسانية الجديدة.

وقد سعى المنهج الوصفي إلى تغيير النحو القديم بما يتوافق مع البحث العلمي الموضوعي يقول عبده الراجحي في كتابه النحو العربي والدرس الحديث: "وحيث انتقل المنهج الوصفي إلى الدرس العربي بعد اتصال أساتذتنا وباحثينا به في الغرب، بدأت هذه الانتقادات التي أخذها الوصفيون على النحو التقليدي الأوربي تظهر في معظم المؤلفات الحديثة التي تعرض للنحو العربي"¹¹. وقد لخص هذه الانتقادات فيما يلي:

- 1- أن النحو العربي تأثر بالمنطق الأرسطي مما جعل منه نحواً "صورياً" وليس "واقعياً".
- 2- أن النحو العربي لم يقعد للعربية كما يتحدثها أصحابها وإنما قعد لمستوى معين من الكلام.

3- تحديد بيئة مكانية وزمانية للغة تمثل في الأخذ عن بعض القبائل دون غيرها بحجة أنها لم تتأثر بحياة الحضرة كما لم يأخذوا لغة سكان البلاد المتاخمة لبلاد العجم وفي هذا يقول السيوطي: "قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم"¹². وقد رافق هذا التحديد للمكان تحديد للزمان فحددوا عصر الاستشهاد بآخر العصر الأموي.

يقرر الوصفيون أن هذا الأصل من أصول النحو العربي جعل منه نحواً لا يمثل العربية وإنما يمثل جانباً واحداً منها، وبالتالي فهو نحوٌ ناقصٌ لا يقدم قواعد الكلام العربي في بيئاته المختلفة.

- 4- عدم التمييز بين "مستويات التحليل اللغوي" فقد جمعت كتب النحو منذ سيبويه الظواهر الصوتية إلى الصرفية إلى النحوية إلى الدلالية.¹³

وبالرغم من هذه الشوائب التي تصور الوصفيون وجودها في المنهج النحوي القديم، ومن نعمهم لغة النحاة باللاتنويرية واللازمانية، فقد اكتفوا بالإشارة السطحية لمفاهيم التطور اللغوي ولم يستطيعوا طرح جوهر مشكل مادة الدراسة. يقول الفاسي الفهري: "حتى الوصفيون الذين انتقدوا النحاة القدامى أشد ما يكون الانتقاد وعابوا عليهم إفسادهم للنحو بإدخال

أدوات ومفاهيم منطقية فيه، وانتصارهم للقياس واصطناع أمثلة وتراكيب كثيرة لم تكن موجودة في اللغة ولم تسمع عن العرب وإنما أوردوها لتزكية أصولهم، حتى هؤلاء اكتفوا بالاحتفاظ بما أتى به القدماء من معطيات ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على مجرد مواد جديدة انطلاقاً من نصوصٍ شفوويةٍ أو مكتوبةٍ¹⁴. أي أنهم بالرغم من نقدهم للمنهج النحوي ومعطياته الدراسية، بقوا محافظين على معطيات القدماء، حيث رسخ في اعتقادهم أن إشكال المعطيات قد حل في عصر التدوين.

وجملة القول، فإن احتفاظ المعاصرين بمادة القدماء قد وضعهم أمام إشكالٍ منهجي، خاصةً أنه لا يمكن الفصل بين منهج ومادة النحاة، مما أدى بهم إلى تقديم بدائل وصفية تغري بالحدثة والجدة وبتوظيف المناهج اللسانية الحديثة. لكنها في الحقيقة لا تعدو أن تكون "مَحْوَرَة" لكلام القدماء إما عن طريق مزجه ببعض الآراء اللسانية المعاصرة، وإما بهدم الحدود بين علوم اللسان العربي، كما فعل تمام حسان عند مزجه علم المعاني بعلم النحو حتى يجد للمستوى الدلالي بمعناه العام مكاناً في البحث النحوي¹⁵.

ومن أمثلة هذا التذبذب المنهجي تطالعنا المحاولات الإصلاحية للنحو العربي نحو: "النحو الجديد" لشوقي ضيف، و"أصول النحو العربي" لمحمد عيد، و"دراسات نقدية في النحو العربي" لعبد الرحمن أيوب.. وغيرها كثيرٌ. وكلها لا تعدو، -بالرغم من مقدماتها النظرية المغرية- أن تكون إعادة تنظيم الأبواب النحوية أو حذفاً لبعض المفاهيم القديمة، مما جعلها محاولاتٍ مبتورةً. وللخروج من هذا الإشكال المنهجي أقر العديد من الدارسين بوجود اختلافٍ كبيرٍ بين اللغة العربية الموروثة عن متون عصر التدوين وعربية المحاضرات والندوات والإعلام في عصرنا الحالي. ويجرنا هذا التصور إلى التخلي عن وساطة الآلة النحوية والتعامل المباشر مع النصوص اللغوية. "فبناء نحو اللغة القديمة مثلاً لا يحتاج ضرورة إلى المعطيات الموجودة في النحو القديم، بل يمكن أن يستغنى عنها باستعمال النصوص القديمة"¹⁶. ثم يؤكد أن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتيازٍ في وصف العربية، بل هي غير لائقةٍ في كثيرٍ من الأحوال¹⁷. ويشير إلى أن الاهتمام اللساني قد انتقل من العناية بوصف اللغة إلى العناية بالنحو، أي من تركيز البحث على تجميع المعطيات وتصنيفها ووصفها إلى التركيز على الأنساق القاعدية في الدماغ البشري في مختلف حالاته الفطرية¹⁸.

أما بناء نحو العربية الحديثة ولهجاتها المنتشرة فتعتمد على المعطيات المعاصرة شفوية كانت أم كتابية والتي تجمع كل مستويات النحو من معجم وتركيب ودلالة وصوابة. لكن يذهب بعض الباحثين إلى أن الإقرار بوجود عربيتين هو طرحٌ شكليٌّ، بحيث أن الاختلاف الذي قد نصادفه بين المتن القديم والتداول الحديث لا يمس الجانب التوزيعي للألفاظ بقدر ما ينحصر

مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم

في الجانب التحويلي. "ذلك لأن بعض التحويلات التي كانت معروفة في العربية القديمة قد عرّف عنها الاستعمال وعوضت بتحويلاتٍ أخرى، من ذلك مثلاً ظاهرة الاشتغال في اللغة، حيث أصبح الناس يكتفون بتقديم الفاعل تاركين المفعول به مكانه"¹⁹. لذا فالانشغال الأساسي ينبغي أن يكون هو تتبع مسار التحويلات، وليس الانكباب على الأصول الرتبوية الأولى التي لازالت تحافظ على نسقها. وفي الحالتين معا غدا القول بالفصل بين صنفين لغويين من العربية لازما في البحوث اللسانية المعاصرة، وذلك لسببين رئيسيين:

أولهما: القياس على اللغات الأوروبية التي تخضع لتغييرات دائمة في مفرداتها وأشكالها الصرفية والتركييبية، ما دام المعجم يخضع لمنطق الاستعمال اليومي. في حين ظلت العربية جامدة منذ عصر التدوين في قوالب صرفية ونحوية.

ثانئهما: عدم خضوع العربية، كما هي واردة في متون النحو العربي القديم، للعديد من القواعد اللسانية المعاصرة، مثل: التنغيم والنبر، وبعض الحالات التركييبية كالاستفهام بأصنافه المختلفة.

هذا التصور المنهجي في دراسة اللغة جعل من اللسانيات حلقة أخرى في سلسلة الجهود السابقة بما توفره من نظرة جديدة إلى موضوع اللغة ومنهج دراستها، فهي تختلف بشكل واضح عن مناهج الدراسة السابقة من حيث التصور ومجال الدراسة والغاية التي تسعى إلى تحقيقها. وينطلق هذا المجهود مع عودة بعض الدارسين العرب من الجامعات الأوروبية بعد دراستهم للفكر الغربي الحديث، خاصة من تأثروا بالمنهج الوصفي في دراسة اللغة الذي ينعكس في أبحاثهم والتي قدموا فيه خطابا لسانيا متأثرا بهذه النظرية يشمل العناصر التالية:

1- تقديم النظرية الوصفية الغربية.

2- محاولة تطبيقها على اللغة العربية.

3- نقد النحو العربي القديم.

فقد حاول هؤلاء الدارسون تقديم مفهومٍ شاملٍ حول أسس النظرية اللسانية من خلال التعريف بأهم أعلامها وجهودهم المختلفة كما قاموا بعرضٍ مفصّلٍ لمبادئها وأسسها المعرفية، وتبيين طريقة العمل بها من خلال النموذج الغربي في الدراسة، كما قاموا بنشر وترجمة أهم مصطلحاتها.

يتضح هذا الجهد من خلال ما قدمه الدكتور تمام حسان في كتابه "مناهج البحث في اللغة" ليرز فيه ما وضعه الغربيون من منهج وصفي وعرضه بشيء من التفصيل للقارئ العربي من خلال أمثلة ووسائل إيضاح باستعمال أساليب لسانية متنوعة بين الفصحي والعامية ومن لغات أجنبية.

وهي محاولةٌ جادةٌ لعرض مبادئ المنهج الوصفي في مناخر لغويٍ مشككٍ في جدوى الدراسات اللغوية الحديثة في دراسة اللغة الفصحى، فوضع كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" موضعاً الغاية التي يسعى إليها قائلاً: "والغاية التي أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءاً جديداً كاشفاً على التراث اللغوي العربي كله منبعثاً من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"²⁰ وقد اعتبره إجراءً شاملاً لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجري بعد سيبويه وعبد القاهر -عل حد قوله-وقد تمت العودة إلى التراث اللغوي القديم بكل ما يزخر به من معارف وعلوم، رغبة منهم في إيجاد طرق ومناهج مناسبة لمقاربة هذا التراث المعرفي باليات وإجراءات تبدو جديدة وجادة في الدراسة والتحليل والتقييم.

ولهذا لم يبخل التراث النحوي بإيجاد مادةٍ حيويةٍ لا تستعصي على مثل هذه الأساليب والمناهج الحديثة بحثاً ونقداً للتجربة النحوية العربية بأبعادها المعرفية والثقافية التي تختلف بشكلٍ أو بآخر عن طبيعة الدرس النحوي عند الغرب سواء في منطلقاته المعرفية أو طبيعة الدرس اللساني الحديث عند الغرب وكيفية تناوله لهذا التراث النحوي الغربي.

لكن هل يصحُّ - من الناحية المنهجية- إسقاط مفاهيم ومبادئ اللسانيات المعاصرة على قضايا لغويةٍ خاصةٍ بالدرس النحوي العربي القديم؟ أم يجب مراعاة خصوصية اللغة العربية؟.

ما يمكن ملاحظته عن طبيعة الدراسات التي تناولت النحو العربي القديم أنها أسيرة التصورات الحديثة التي تهدف إلى تطبيق المفاهيم المعاصرة على الدرس القديم. وهو ما يمثل إشكالاً منهجياً مهماً يتمثل في اختلاف التصورات والتوجهات بين النحاة قديماً وما طرحه اللسانيات المعاصرة من قيمٍ معرفيةٍ وعلميةٍ مختلفةٍ.

لهذا لا بد من مراعاة البيئة الفكرية والثقافية التي نشأ فيها النحو العربي قبل مقارنته باليات وأساليب تتوافق مع نحو غربي له تقاليد اللغوية الخاصة، لهذا وجب على الدارسين النظر في النحو داخل النظام الفكري الذي ولد فيه. للوقوف على كيفية تشكيل المعرفة النحوية. ولعل أول إشكالٍ يواجه اللسانيات العربية هو معطيات الدراسة أو طبيعة اللغة التي يقوم الدارس بوصفها هل هي اللغة العربية الفصحى؟ أم اللغة العامية الأكثر تداولاً واستعمالاً شفوية كانت أم نصوياً مكتوبةً.

وقد نبّه محمد عيد إلى خطورةٍ منهجيةٍ دقيقةٍ بقوله: "وينبغي التنبه إلى أنّ هناك فرقاً بين البحث في اللغة واللغة نفسها، فاللغة المدروسة لا يغيرها اختلاف النظر إليها بمنهجٍ دون آخر". في محاولةٍ منه إلى إثبات جدوى دراسة النحو العربي وفق ما يدعو إليه علم اللغة الحديث وتوظيفه لبيان ما في تراثنا من قيم علمية نافعة، بإزالة ما علق من غبار وإزاحة ما

مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم

مجملة فصل الخطاب

غلفها من ضبابٍ، حتى يعود إليها ما هي جديرة به من الوضوح والنقاء. من خلال تثمين جهود "ابن مضاء" وآرائه النحوية وإعطائه مكانته في الدرس اللغوي الحديث²¹. وبالنسبة للمقولة الثالثة في نقد النحو العربي القديم وهي مشكلة البحث الأساسية المتمثلة في "مظاهر التناول اللساني للنحو العربي القديم" والتي يمكن تحديدها من خلال المحاور التالية:

- المرجعية العلمية والمعرفية لهذا النقد.
 - الموضوع المستهدف نقداً.
 - المقولات النقدية الناتجة عن هذا النقد.
 - نقد حر أم هي محاولات إسقاطية.
 - تمثيل اللسانيون العرب للمرجعية الغربية.
 - علاقة هذا النقد باللسانيات.
- ولعله من الواضح أنّ اللغة العربية قد وصلت إلى مرحلة الاستفادة الفعلية من النظريات اللسانية الحديثة وظهور مؤشرات لنشأت نحو عربي جديد يوافق متطلبات العصر. وعلى حد تعبير عبد السلام المسديّ إنما هي مصاهرة بين التراث واللسانيات الحديثة²².
- والحقيقة أنه على الرغم مما صنّف من مؤلفات لإصلاح النحو وتيسيره قديماً وحديثاً إلا أنّ المشكلة لا تزال قائمة ولا تزال الصيحات والشكاوى تتكاثر من النحو وصعوبته وجفافه²³.
- وفي الأخير يمكن أن نخلص إلى أنّ النحو القديم كان نحواً عاماً يدرس كل مستويات اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية لعدم وجود خطة منهجية تبدأ من البسيط إلى المركب، فوصفت أعمالهم بالاضطراب على الرغم من وزنها الثقيل في الدرس اللغوي، وقد جاء الدرس النحوي القديم شاملاً لكل قواعد اللسان العربي، وهو ما يتعارض مع طبيعة علم اللغة الحديث الذي يميل إلى الفصل بين مستويات اللغة أثناء الدراسة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 الخصائص، ابن جني، تج: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م) ج1، ص: 88.
- 2 الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج، تج: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بغداد، 1974م، ص: 37.
- 3 القواعد الأساسية للغة العربية حسب منهج متن الألفية لابن مالك و خلاصة الشراح لابن هشام وابن عقيل والأشموني، أحمد الهاشحي، بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1988م، ص: 6، 7.
- 4 الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 25.
- 5 لإحاطة في النحو، بلعيد صالح، الجزائر: د. م. ج، دت، 1994م، ص: 8.

6 العربية وعلم اللغة البنيوي، حلي خليل، دراسة في الفكر اللغوي الحديث (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (د. ط،) (1995م) ص: 15.

7 فردينان دي سوسير: "Ferdinand de Saussure" من (26 نوفمبر 1857 إلى 22 فبراير 1913) عالم لغويات سويسري يعتبر الأب والمؤسس لمدرسة البنيوية في اللسانيات في القرن العشرين. وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث حيث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات ووصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية وكانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية.

ولد دي سوسير في جنيف، وكان مساهما كبيرا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين. كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية أقترح دي سوسير تسميته semiology ويعرف حاليا بالسيميوستيك أو علم الإشارات.

8 (أفرايم نعوم تشومسكي) (Avram Noam Chomsky) مولود في 7 ديسمبر 1928 فيلادلفيا، بنسلفانيا (هو أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. وهو أستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والتي عمل فيها لأكثر من 50 عام. إضافة إلى عمله في مجال اللسانيات فقد كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100 كتاب. وفقاً لقائمة الإحالات في الفن والعلوم الإنسانية عام 1992 فإنه قد تم الاستشهاد بتشومسكي كمرجع أكثر من أي عالم حي خلال الفترة من 1980 حتى 1992، كما صُنف بالمرتبة الثامنة لأكثر المراجع التي يتم الاستشهاد بها على الإطلاق في قائمة تضم الإنجيل وكارل ماركس وغيرهم. وقد وُصف تشومسكي بالشخصية الثقافية البارزة، حيث صُوِّت له كـ "أبرز مثقفي العالم" في استطلاع للرأي عام 2005.

ويوصف تشومسكي أيضاً بأنه "أب علم اللسانيات الحديث" كما يُعد شخصية رئيسية في الفلسفة التحليلية. أثر عمله على مجالات عديدة كعلوم الحاسب والرياضيات وعلم النفس. كما يعود إليه تأسيس نظرية النحو التوليدي، والتي كثيراً ما تعتبر أهم إسهام في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين. ويعود إليه كذلك فضل تأسيس ما أصبح يُعرف بـ "تراتب تشومسكي" ونظرية النحو الكلي ونظرية تشومسكي-شوتزنبرغر.

وبعد نشر كتابه الأول في اللسانيات أصبح تشومسكي ناقد بارز في الحرب الفيتنامية ومنذ ذلك الوقت استمر في نشر كتبه النقدية في السياسة. اشتهر بنقده للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية ورأسمالية الدولة ووسائل الإعلام الإخبارية العامة. وقد شمل كتاب "صناعة الإذعان: الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الجماهيرية (1988)" على انتقاداته لوسائل الإعلام، والذي تشارك في كتابته مع إدوارد هيرمان وهو عبارة عن تحليل يبلور نظرية لنموذج البروباغندا لدراسة وسائل الإعلام. ويصف تشومسكي آراءه بأنها "تقليدية أناركية إلى حد ما تعود أصولها لعصر التنوير والليبرالية الكلاسيكية" بعض الأحيان يتم تعريفه مع النقابية الأناركية والاشتراكية التحررية. كما يُعتبر كذلك منظرًا رئيسياً للجناح اليساري في السياسة الأمريكية.

9 ولد بياجيه في مدينة نيوشاتيل بسويسرا عام 1896 وتوفي عام 1980 وكتب مقالته الأولى وهو في سن الثالثة عشر من عمره، وفي الثانية والعشرين من عمره حصل علي الدكتوراة في علم البيولوجية وفي عام 1921 عين مديرا للدراسات بمعهد جان جاك روسو في جنيف، حيث نشر بعد ذلك كتابين من أشهر كتبه:

- اللغة والفكر عند الطفل (1923). Language and Thoughts of the child
 - الحكم والاستدلال عن الطفل (1924). Judgement and Reasoning of the Child
- وقد أوضح بياجيه في هذين الكتابين كيف يتطور تفكير الطفل خلال المراحل العمرية المختلفة. لقد كرس بياجيه حياته كلها التي زادت عن الثمانين عاما لدراسة النمو العقلي عند الأطفال حتي أصبح هذا الاهتمام هو المميز له بين علماء النفس المحدثين بصفة عامة، وعلماء نفس النمو بصفة خاصة، ولقد اهتم بياجيه بموضوعات أخرى كثيرة مثل: الدوافع والإدراك، التصرفات، والقيم عند الأطفال. ولكن اهتمامه بها كان لبيان ما بينها وبين الذكاء من روابط وعلاقات، أي أن اهتمامه بهذه الموضوعات لم يكن اهتماما لذاتها، بقدر ما كان موجها لخدمة موضوعه الأساسي، وهو دراسة تطور تفكير الأطفال وإنشاء نظرية في المعرفة التكوينية.
- 10 Antoine Meillet La Methode Comparative En Linguistique Historique pp: 10-11
- 11 النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، عبده الراجحي، دار النهضة، بيروت، 1979م، ص: 48.
- 12 المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تج: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية: ج1/111.
- 13 النحو العربي والدرس الحديث، عبده الراجحي: ص: 52
- 14 اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسي الفهري، عويدات للنشر، بيروت، ط1، 1986م، ص: 52.
- 15 اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص: 336.
- 16 اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسي الفهري، ص: 54.
- 17 المرجع نفسه، ص: 61.
- 18 نفسه، ص: 46.
- 19 النحو التأليفي مدخل نظري وتطبيقي، محمد الحناش، مجلة دراسات أدبية ولسانية، العدد الأول، السنة الأولى 1985. ص: 58.
- 20 اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: 10.
- 21 أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وفي ضوء علم اللغة الحديث: محمد عيد، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، 1989م ص: 7.
- 22 التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي الكتاب الجديد، المتحدة، ط3، 2009م، ص: 12.
- 23 مشكلات النحو بين القديم والحديث، كاصد ياسر الزيدي، مجلة الدراسات اللغوية، مج1، ع2، (سبتمبر 1999م)، ص: 204. نقلا عن النحو العربي في ضوء اللسانيات الحديثة، جنان التميمي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص83.